قراءة في كتاب الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح في الجزائر لرابح تركي عمامرة

أ.د. أبو القاسم سعد الله
جامعة الجزائر

موقع ابن باديس في مسيرة الجزائر؟

من الكتب ما يولد ومعه شهادة البقاء، لأنه يحمل عينات خاصة تتمثل في الموضوع الذي يتناوله. ومن الكتب ما يظل عرضة للذباب الغبار فلا يقرأه الناس ولا تعرفه الأجيال. ويبدو أن الكتاب الذي نتحدث عنه اليوم من الصنف الأول لأن مؤلفه، الدكتور رابح تركي عمامرة، اختار موضوعه عن قناعة وعالجه باقتدار، ونعني به كتابه (الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر).

وإذا كان اسم الشيخ ابن باديس معروفا لدى الجميع فإن اسم رابح التركي ربما لا يعرفه إلا نخبة من المثقفين وأساتذة التربية والتعليم في الجزائر وخارجها، ولذلك وجب الربط بين المؤلف والموضوع. فالمؤلف تلميذ لتلاميذ ابن باديس ومعلم في مدارس الإصلاح، بدأ حياته مربيا في مدارس جمعية العلماء التي ترأسها ابن باديس والإبراهيمي وانتهى أستاذا جامعيا مرموقا يحمل شهادات عليا في ميدان التربية والإصلاح الاجتماعي.

وأثناء هذه الرحلة الطويلة التي جاب فيها معاهد العلم في المغرب والمشرق، مر على مرحلة الثورة الجزائرية مرور المناضلين، فعمل في أجهزة إعلامها مذيعا ومعلقا ومدافعا إلى أن تحقق لها النصر، وكانت أنشطته هذه في إطار البعد الإصلاحي والتوجيه

الباديسي، وكان إذ ذاك وثيق الصلة بالشيخ الإبراهيمي الذي كان يقيم مثله في القاهرة.

أخرج رابح التركي أول طبعة من كتابه سنة 1969 ثم أخذ يضيف إليه وينقحه حتى بلغ سنة 2001 طبعته الخامسة، ولعله الآن يحضر لطبعته السادسة، فالكتاب -كما قلنا - ولد ليخلد، ورغم تغيير العنوان بعض الشيء من طبعة إلى أخرى فإن الموضوع ظل واحدا. وفي الطبعة الخامسة شرح الكتاب نفسه بنفسه، فعلى غلافه لوحة تلخص النقاط البارزة فيه، ويكفي أن يقرأها المرء بتمعن ليفهم ماهية الكتاب وهدفه.

ومع ذلك فإن المؤلف قسم كتابه إلى اثني عشر فصلا، استغرقت فهرستها بتفاصيلها حوالي ست عشرة صفحة، ونحن نجد في هذه الفصول حديثا عن كل نقطة لها صلة بنشأة ونشاط ابن باديس، فهناك حديث عن عصره وحياته العائلية والشخصية، وعن علاقته بالهوية الجزائرية (وهي تتلخص في الإسلام والعروبة والجزائر والتاريخ والانتماء)، كما هناك حديث عن مجلة الشهاب باعتبارها لسان حال الحركة الباديسية، وهي التي حملت همومه في التربية والتعليم بأوسع معانيهما كالأخلاق والفلسفة وعلم النفس وطرق التدريس. ولذلك يمكن القول إن جل الكتاب قد

انصب على جهود ابن باديس في التربية والتعليم لإخراج الجزائريين من ظلمات الجهل إلى نور العلم والحرية.

وللكتاب ملاحق كثيرة تجاوزت الخمسين صفحة، وهي مقسمة إلى قسمين: الأول ضم وثائق تلقي الضوء على حياة وفكر ابن باديس سواء كانت وثائق من إنشائه أو من إنشاء غيره، أما القسم الثاني من الملاحق فمخصص لحياة المؤلف (رابح تركي) وهذا القسم يستغرق الصفحات من 537 إلى آخر الكتاب.

لاشك أنك فهمت أن هناك إعجابا من المؤلف بشخص وإنجازات ابن باديس في الميادين التي ذكرناها، مضافا إليها ميدان الوطنية، والإعجاب يحجب أحيانا بعض الزوايا من الصورة عند تحليل الشخصيات وحياة الزعماء. فلا نرى إلا الجانب المشرق من الصورة التي تبهرنا بجاذبيتها وهالتها المقدسة. ونحن نرى آثار هذا الإعجاب في إبراز المؤلف الكلمات البارزة والسطور المميزة باللون الأسود والمربعات التي تحتوي على فقرة أو فقرات من كلام ابن باديس والتي يريد المؤلف لفت الانتباه إليها انطلاقا من الإعجاب بها، كما أشرنا.

وهكذا فالكاتب مثقل بخمس مقدمات، ووثائق مصورة كثيرة، وفهرس طويل وقائمة مراجع بدا عليها القدم رغم أن الناس لم يتوقفوا عن الكتابة عن ابن باديس مما جعل صورته وجهوده تتضح أكثر فأكثر، وهناك تكرار لفظي (صفحة 182، ص 249

مثلا) وتكرار معنوي في تتبع مسيرة الشيخ الوطنية والسياسية والتعليمية وجهوده الإصلاحية.

ومما يحمد لرابح التركي أيضا أنه قدم لنا ابن باديس في اهتمامه بالشباب والمرأة والجمعيات الخيرية والنوادي الأدبية واهتمامه بالتمثيل والكشافة، وباختصار إدراكه لدور المجتمع المدني -كما نقول اليوم. وقد أجاب المؤلف على أسئلة ظلت عالقة كمنبعه الذي شرب منه مبدأ الإصلاح، وموقفه من التجنس السياسي والتجنس الوطني، ومرضه الذي قضى عليه وهو في الخمسين من عمره.

ولكن الكتاب لم يجب عما إذا كان ابن باديس قد تجاوزه الزمن، كما يحلو للبعض أن يردد هذه الأيام. وربما نترك ذلك لمحللي النظريات والحركات الاجتماعية، لأن المسألة لا تتمثل في الأفراد ولكن في الأفكار. فهل انتهى فكر ابن باديس مع نهاية التاريخ عنده؟ قد يكون ذلك. ولكن هل همود أو حتى اختفاء فكر ابن باديس الآن معناه نهاية تاريخه؟ لا نعتقد ذلك، فأفكار العظماء تنام طويلا أحيانا ثم تظهر فجأة عندما تتاح لها الأرض الخصبة والدعاة المؤمنون بها. ونحن نقرأ ونشاهد عبر التاريخ حركات وأفكارا اختفت قرونا ثم رجعت إلى الواجهة. إن الكتاب

الذي نتناوله يساعدنا على رؤية الأشياء ولا يسميها لنا، و يكفي مؤلفه أن يكون من المخلدين للفكر الباديسي.

الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، ط 5، 2001
تأليف رابح تركي عمامرة، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 543 + صفحة.